اقتصاد المغرب الإسلامي
كما وصفه ياقوت الحموي في معجمه

دة. نوال بلمداني*

الملخص:

يعد معجم البلدان لصاحبه "ياقوت الحموي"، خزانة أدب، وعلم، وأخبار، وتاريخ، وجغرافية، ومن خلال الاطلاع على محتواه يتضح لنا مدى عناية المؤلِّف بالجغرافية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، أي شؤون العمران عامة.

وانطلقا من هذه الأهمية سأحاول وضع صورة عن اقتصاديات المغرب الإسلامي كما وصفها ياقوت الحموي في معجمه، وكذا إبراز مدى اهتمام المصنفات المشرقية بوصف منطقة المغرب الإسلامي، وقيمة المادة المصدرية التي أفادتنا بها لرسم صورة واضحة عن هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: ياقوت الحموي، اقتصاد، زراعة، تجارة، صناعة، مغرب إسلامي، معجم البلدان.

Abstract:

The yaqoot al hamawi 's glossary is a colleection of literature, science, stories, history and geography, in view of its content, we find the extent to which that its author was thoroughly aware of many modern human scientific discplines like geo-sociology, socio- economy, and geopolitics including architeture in general and from the historical value of what is mentined above, I try to shed light on the islamic Maghreb economical features as it's been described by yaqoot al hamawi in his glossary, and to highlight the interest of the Islamic orient geographical works in their descriptions of the islamic maghreb region and the value of the knowledge sources which we have used to picture a clear picture of this area at that time.

Key words : yaqoot al hamawi, economy, agriculture, commerce, industry, islamic maghreb, glossary.

* أستاذة محاضرة "أ" جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر.

مقدمة:

بعد أن فتح المسلمون منطقة المغرب الإسلامي أصبحت هاته الأخيرة جزءا هاما من العمل الإداري للدولة الإسلامية بالمشرق، وصار الإقليم والعناية به جزءا من أخبار الفتوح والمغازي، ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثرواتها ومقدرتها على دفع الضرائب.

وباستقرار الدولة الإسلامية بالمشرق وكثرة حجاجها وتجارها وأهل العلم والرحالة، وبدأ الكثير منهم يهتم بتدوين ما يرون ويشاهدون ويسمعون، أخذت الجغرافية تتبلور حول دراسة الأقاليم دراسة وافية، بما فيها المغرب الإسلامي كمجال جغرافي، لتظهر بذلك أربعة اتجاهات في التأليف الجغرافي العربي وتعد "المعاجم الجغرافية" واحدة منها، ومن خلال الاطلاع على ما احتوته هاته المصنفات يتبين لنا مدى عنايتها بالجغرافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أي شؤون العمران عامة، إذن من المُسَلَّم به أن العرب كان لهم القدح المعلى والفضل الأكبر في اكتشاف ووضع كثير من النظريات والقوانين والإضافات المتنوعة في علم الجغرافية، ولم يكن الجغرافيون العرب كما هو شائع مجرد رحّالة ركبوا البحار أو الفيافي وانتقلوا بين المدن والأمصار.

ومما لا شك فيه أنّهم تركوا من خلال هذه الأسفار كتباً ومصورات وخرائط في العلوم الجغرافية والاجتماعية، مما يعدّ ثروة وتراثاً علمياً تفوّقُوا به على علماء الجغرافية في مختلف أنحاء العالم؛ لأنّ رحلاتهم لم تكن تقف عند حدّ معرفة السبل المؤدية إلى الأمصار التّي يقصدونها بقصد الاتجار وتبادل السلع والبضائع، بل أنهم قصدوا من ذلك أيضاً معرفة طبيعة الأقاليم وعوامل الخصب والجدب فيها ونوع الزرع والثمر، ومن بين هذه المصنفات كتاب "**معجم البلدان**" لصاحبه ياقوت الحموي، وهو خزانة أدب، وعلم، وأخبار، وتاريخ، وجغرافية، وانطلقا من هذه الأهمية سنحاول الوقوف عند "**اقتصاد المغرب الإسلامي كما وصفه ياقوت الحموي في معجمه**"، وإبراز مدى اهتمام المصنفات الجغرافية المشرقية بوصف

منطقة المغرب الإسلامي، وكذا قيمة المادة المصدرية التي أفادتنا بها لرسم صورة واضحة عن هذا المجال.

1- التعريف بالمؤلف

إنّ صاحب الكتاب رحالة وأديب، وشاعر، وخطّاط، ولغوي، ومن أشهر جغرافي الحضارة الإسلامية، ذكرته بعض المصادر باسم "أبو الدر بن عبد الله الرومي الجنس، الحموي المولد، البغدادي الدار، الملقب شهاب الدين"[1]، ولد عام (574هـ / 1178م) في بلاد الروم[2]، ومن هنا جاءت تسميته بالرومي[3].

أُسِرَ الحموي من بلاده صغيرا، وبيع في سوق العبيد في بغداد، فاشتراه تاجر يعرف بعسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، فعاش كرقيقٍ حتى سن العشرين، وكان مولاه عسكر لا يحسن الخط ولا يعلم شيئا سوى التجارة؛ فأدخله مدرسة يتعلم فيها الكتابة، لينتفع به في ضبط تجارته[4]، ولما كبر ياقوت قرأ شيئًا من النحو واللغة، ونال تعليمًا إسلاميًّا جيّدًا، وكان سيده يعتمد عليه في متاجره؛ وهو ما يؤكده ابن خلكان بقوله: "شغله مولاه بالأسفار في متاجره فكان يتردد إلى كيش وعمان وتلك النواحي ويعود منها إلى الشام[5].

لكن لم يلبث أن دبَّ بينهما خلاف فأعتقه سيده عام (596هـ / 1199م)، وبذلك أصبح حرًّا، فاحترف ياقوت مهنة نسخ الكتب وبيعها ببغداد، وقد أفاد من ذلك كثيرًا[6]؛ إذ أُتيحت له فرصة الاتصال بعددٍ من مشاهير الأدباء والرواة، ثم عاد الوئام بينه وبين سيده القديم إلى عهده السابق، فاستأنف ياقوت أسفاره التجارية، وعند عودته من إحدى الرحلات وجد سيده قد مات بعد أن أوصى له ببعض ثروته، فعاد لتجارة الكتب فترة من الزمن. توسعّ ياقوت الحموي في رحلاته منذ عام (610هـ / 1213م) وهذا ما ساعده على تكوين معارفه إلى أن بلغ مرو[7]، والتي وصفها قائلا: "وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تُخرج مدينة مثلهم؛ منهم: أحمد بن محمد بن حنبل الإمام، وسفيان بن سعيد الثوري .. وغيرهم"[8]، ويتحدث واصفاً مكتباتها فيقول: "فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبُّها كلَّ بلد وألهاني عن الأهل والولد، وأكثرُ فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن "[9]، وبعدها خرج لزيارة خوارزم، التي قدَّمَ

لها وصفًا رائعًا بقوله: "وما ظننت أن في الدنيا بقعة سعتها سعة خوارزم وأكثر من أهلها، مع أنهم قد مرنوا على ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، وفي النادر أن يكون قرية لا سوق فيها، مع أمنٍ شامل وطمأنينة تامة، والشتاء عندهم شديد جدًّا؛ بحيث إني رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل وهو جامد، والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه"[10].

ومن الواضح أن رحلة ياقوت كانت طويلة، انتهت به إلى حلب بعد هروبه من التتر الذين دخلوا الموصل سنة 617هـ/1220م وأحداثها يطول ذكرها، أوردها ابن خلكان ضمن رسالة كتبها المؤلّف إلى الوزير ابن عبد الواحد الشيباني القفطي بحلب[11].

2- مؤلفات ياقوت الحموي

لقد استفاد ياقوت كثيرا مما شاهده في أسفاره ومما جمعه من الخزائن التي تردد عليها في مراكز الثقافة التي نشطت فيها الحياة الفكرية؛ فكانت همته عالية في تحصيل المعارف التي برزت أكثر من خلال المؤلفات التي تركها، منها: كتاب سماه "إرشاد الأباء إلى معرفة الأدباء، كتاب "معجم البلدان"، وكتاب "معجم الشعراء"، وكتاب "معجم الأدباء"، وكتاب "المشترك وضعا المختلف صقعا" وهو من الكتب النافعة، وكتاب "المبدأ والمآل" في التاريخ، وكتاب "الدول" و"مجموع كلام أبي علي الفارسي" و"عنوان كتاب الأغاني" و"المقتضب في النسب" يذكر فيه أنساب العرب، وكتاب "أخبار المتنبي[12]، لهذا وصفه صاحب "معجم الأدباء" قائلا: "مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب".[13]

3- وفاته

بعد رحلة طويلة مليئة بالعذاب والتنقل من بلدة إلى أخرى هربًا من جحيم التتار، استقر المطاف بياقوت الحموي في حلب عند الوزير ابن القفطي، الذي أكرمه وأحسن ضيافته، وظلَّ بها إلى أن توفي، ويخبرنا صاحب كتاب "وفيات الأعيان" عن وفاته فيقول: "توفي يوم الأحد العشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرون وستمائة، في الخان بظاهر مدينة حلب، وكان قد وقف كتبه على مسجد

الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير"[14]، وبهذا يصح القول أن ياقوت الحموي قدَّم للإنسانية مؤلفات جغرافية تفخر بها علمًا وأسلوبًا، فاستحقَّ أن يُطْلَق عليه الجغرافي الأديب.

4- التعريف بكتابه "معجم البلدان" ودواعي تأليفه

نال معجم البلدان شهرة كبيرة بين المهتمين بالجغرافية، وعنه يقول المستشرق كراتشكوفسكي: "أفضل مصنفٍ من نوعه لمؤلِّفٍ عربي للعصور الوسطى، ولتكوين فكرة عن معجمه يكفي أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعًا وتسعين صفحة، وهو جماع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضًا، كما تنعكس في الجغرافية التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والأثنولوجيا..."[15]، كما أن أهمية هذا الكتاب تظهر في عرض صاحبه لآراء ونظريات العلماء الذين يذكرهم بصورة واضحة ومنهجية سليمة، مع كون هذه النظريات متناقضة أو مختلفة فيما بينها.

أما عن سبب تأليفه لهذا المعجم يخبرنا عنها في ثنايا مقدمته، حيث كان ذات يوم في مجلس صاحب مرو وأميرها، وذُكِرَتْ كلمة (حباشة)، فذكر البعض أنها بالفتح، وذكرها آخرون بالضم، وكان هذا رأي ياقوت، وأراد أن يثبت صحة مقولته، فانطلق يبحث عنها بين الكتب[16]، فكان ذلك حافزًا له إلى هذا العمل الموسوعي العظيم، وهذا ما جعل المستشرق الروسي سنكوفسكي يصف ياقوت الحموي بقوله: "كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة في تاريخ وجغرافية العصور الوسطى، وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الأوضاع الجغرافية والأثنوغرافية والسياسية لعصره".[17]

5- منهجه

أما منهجه فيعد منهجًا فريدًا، لأنه جمع بين اللغة والتاريخ والجغرافية، غير أنّ الجانب اللغوي فاق الجانب الجغرافي، عموما، منهجه تمثل في:

- ضبط أعلام الجغرافية بالتشكيل والحروف لبيان نطقها الصحيح، تجنّبًا للخطأ عند نطقها أو كتابتها، على سبيل المثال: أجدابية: بالفتح، ثم السكون، ودال مهملة بعد الألف باء موحدة، وياء خفيفة، وهاء[18].

- تفسير تلك الأعلام، وبيان اشتقاقها اللغوي، وتوضيح منشأ التسمية وأصلها، منها قوله عن مدينة أجدابية: "... إن كان عربيا، جمع جدب، جمع قلة، ثم نزلوه منزلة المفرد لكونه علما، فنسبوا إليه، ثم خففوا ياء النسبة لكثرة الاستعمال، والأظهر أنه أعجمي"[19].

- تحديد موقع المكان، إما بالإقليم، أو بما جاوره من الأماكن والأنهار والبحار المعروفة والمشهورة، وبيان طوله وعرضه، وربما حدد البرج الذي يقع تحته، كالوصف الذي قدمه لمدينة برقة: "إسم صُقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن، قال بطليموس: طول برقة ثلاث وستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق تحت درج من السرطان وست وخمسين دقيقة يقابلها مثلها من الجدي، بيت ملكها مثلها من الحمل..." [20].

- لمحة موجزة عن البلد ومن بناها، وتاريخ فتحها، وذكر أبرز الأحداث والتطورات التاريخية التي مرّت بها حتى عصره، مع التطرق إلى خططها وآثارها، ومن الأدلة الكاشفة عن ذلك النص الذي نقله عن البكري واصفا مدينة تنس، إذا ذكرها قائلا: "وتنس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس، منهم الكركدن وابن عائشة والصقر وصهيب وغيرهم، وذلك في سنة 262..." وأمور أخرى كثيرة، أشير :"شرع –زيري بن مناد- في بناء مدينة أشير، وذلك في سنة 324 فتمت إلى أحسن حال..." [21].

- ذكر المنسوبين إلى البلد من العلماء والأدباء، وأحيانا يذكر تواريخ ولادتهم، ووفياتهم، وهو ما نلمسه عند وصفه لمدينة باجة وغيرها من المدن، من ذلك تعريفه لأَطْرَابُلسُ، حيث ذكر سبعة أعلام من المنطقة منهم "عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي الأطرابلسي، كان أبوه من أهل الكوفة نزل أطرابلس

الغرب، وولد عبد الله وأخوه يوسف بها فنسبا إليها، وبها أولادهم، وحديثهم كثير مشهور، وبيتهم بيت المعرفة والدراية والإكثار من الحديث"[22].

- توظيفه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية إذا لزم الأمر ذلك، وما قيل في المكان من حكم وأمثال وأشعار، مثلا ذكره للآية (01) من سورة الفتح، والآية (48) من سورة المائدة، والحديث النبوي صفحة355 [23]، ومن الأمثال قوله: "لولا النقونس لم يخالف أهل تونس"[24].

من الواضح، وحسب ما نبَّه إليه المؤلف في مقدمته أن تركيزه انصب حول مدى أهمية المكان وبما توفر لديه من معلومات عنه، أمّا عندما تعوزه المعلومات عن بعض المواضع، فإنه يكتفي بما حصّله عنها، وقد لا يتجاوز في بعضها السطر الواحد، لهذا كثيرا ما نلمس خلطا فيما يخص الأسماء، منها قوله حول زَكْرَم "إمّا قرية بإفريقية أو الأندلس وإما قبيلة من البربر".[25]

6- مصادره

تعدّدت المصادر التي استقى منها ياقوت الحموي مادته البلدانية، من أهمها:

أ- **الكتب السماوية[26]:** وخاصة القرآن مثل توضيح أسماء البلدان التي ترجم لها في مصنفه، على سبيل المثال لا الحصر تعريفه لمدينة "الرَّسْتَنُ" قائلا: "...قال الأصمعي: الرس والرسيس، فالرس لبني أعياء رهط حمّاس...، وقال آخرون في قوله عزّ وجل: "وأصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيرا"، وكذا قوله عن "رَهْطٌ": "...والرهط: ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم إمرأة؛ قال الله تعالى: "وكان في المدينة تسعة رهط"، ثم اعتمد على التوراة في ذكر أسماء بعض المواضع كما ورد ذكرها فيها، من ذلك قوله عن "رحبة مالك بن طَوْقٍ": "وفي التوراة في السفر الأول في الجزء الثاني: إنّ الرحبة بناها نمرود بن كوش..." ، وفي صفحة أخرى يذكر قائلا عند حديثه عن مدينة الري: "وحكى ابن الفقيه عن بعض العلماء قال: في التوراة مكتوب الري باب من أبواب الأرض وإليها متجر الخلق".

ب- **الرحلة والمشاهدة**: حيث كان ينتقي مادته من تجاربه الشخصية ومشاهداته قبل تدوينها، فكان يصف الموضع بدقة وما مر به من أحداث، حتى انه وصف هجوم التتار على البلاد الإسلامية كمدينة "الرَّي" فقال: "واتفق أنني اجتزت

في خرابها في سنة 617 وأنا منهزم من التتر فرأيت حيطان خرابها قائمة..." [27]، لكن هذا ينطبق على المشرق الإسلام وعلى المناطق التي تمكن من زيارتها، أمّا بالنسبة للمغرب الإسلامي فمصادره كانت مختلفة.

ج- **الثقاة والتجار** :كما اعتمد على سؤال الثقاة والتجار، فاخذ عنهم معلومات عن الأقاليم والكور، وأهم الثروات الزراعية، والحيوانية، والمعادن، والصناعات، والحرف في تلك المدن.

د- **المصادر المكتوبة**: كما استمد معلوماته من الرحّالة والجغرافيين الذين سبقوه فى هذا المجال، وعن هذا النوع من المصادر يقول: "وهذه الكتب المدونة فى هذا الباب التى نقلت من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب والمحدثين، ومن أفواه الرواة، وتفاريق الكتب، وما شاهدته فى أسفاري، وحصلته فى تطْوافى...." [28]، غير أن المعلومات التى قدمها عن بلاد الروم وشبه الجزيرة العربية يختلف من حيث الكم عما قدمه فيما يخص بلاد المغرب الإسلامى، وهو ما سنحاول توضيحه من خلال هذه الموضوع.

***أهم المصادر المكتوبة التي اعتمدها الحموي [29]:**

1- مصادر القدماء من الحكماء والفلاسفة ومن جرى على منوالهم من المسلمين:

بطليموس- أرسطوطاليس- ابن خرذادبة- اليعقوبي- الجيهاني- ابن الفقيه- البلخي، الاصطخري- ابن حوقل- البشاري- المهلبي- ابن أبي عون البغدادي- أبو عبيد البكري... إلخ

2- مصادر أهل الأدب واللغة: منهم من ذكر الأماكن والمنازل والبوادي والقفار العربية:

الأصمعي- أبو عبيد السكوني- الحسن بن احمد بن محمد الهمداني- أبو الأشعث الكندي، أبو سعيد السيرافي- أبو محمد الغندجاني- أبو زياد الكلابي- محمد بن ادريس بن حفصة- هشام بن محمد بن السائب الكلبي- أبو القاسم الزمخشري- أبو الحسن العمراني- أبو بكر محمد بن موسى الحازمي- أبو الفتح نصر الاسكندري.

3- أعمال المحدثين والنحويين:

ابن عباس- الجساسة- الزبير- سعيد بن المسيب- أبو محمد بن الخشاب

النحوي- الخليل بن احمد الفراهيدي- أبو منصور محمد بن أحمد المعروف بالأزهري- إسماعيل بن حماد الجوهري- أبو عبيدة معمر بن المثنى- أبو سعيد السكري- محمد بم زيد الأزدي...

4- دواوين الشعراء: من دواوين الشعر التي اضطلع عليها ديوان عرام بن الأصبع السلمي.

5- كتب السير والمغازي: ابن إسحاق- ابن هشام المعروف بأبي منذر- الواقدي- المدائني- ومن الأنساب قرأ كتاب التحبير والنسب للسمعاني- البلاذري.

6- الرسائل التاريخية والجغرافية: رسالة أحمد بن فضلان بن العباس- رسالة ابن بطلان إلى أبي الحسن بن المحسن الصابي ببغداد.

كانت هذه نماذج لبعض المصنفات التي اعتمدها ياقوت الحموي ضمن كتابه، وتضاف إليها كتب الأحوال السياسية والصراعات القائمة بين العرب والموالي، بالإضافة إلى كتب الخراج والأموال، وهذا ما جعل المعجم يستوعب الكثير من العلوم والمعارف السائدة آنذاك منها: علوم اللغة، والجغرافية، والتاريخ، والاقتصاد، والاجتماع والسياسة والدين، وهذا التنوع المصدري ساعد ياقوت على تحرير مادته، مع إمكانية النقد العلمي.

7- اقتصاديات المغرب الإسلامي كما وصفها الحموي في كتابه

كان المغرب الإسلامي إحدى المجالات الجغرافية التي أولها الحموي اهتماما ضمن معجمه، وهذا ما تؤكده العملية الإحصائية البسيطة التي قمنا بها لإبراز مدى حضور هذا المجال مقارنة بغيره من المجالات الأخرى:

الجدول (01)

المجلد	عدد الصفحات	عدد الأوصاف	المغرب الإسلامي	الأندلس	المشرق
م1	619	2397	38	76	2273
م2	615	2795	42	23	2730
م3	526	2615	34	57	2521

م4	563	2716	45	70	2601
م5	516	2430	42	70	2318

الجدول (02)

عدد لمجلدات	عدد الأوصاف	عدد أوصاف المغرب الإسلامي	النسبة التي يحتلها المغرب الإسلامي
5	12953	201	%2

التحليل:

الملاحظ من خلال تصفحنا ل"معجم البلدان" ذلك الجهد الكبير الذي بدله صاحبه للتعريف بمختلف البلدان، لكن هذا الجهد الكبير اتسم في بعض المواطن بالاقتضاب والشح وينقصه الوضوح، كما لا يفوتنا أن ننوه إلى خاصية جمعه في غالب الأحيان بين حداثة وحيوية المعلومات وبين نصوص تاريخية وأدبية وجغرافية سابقة، ومن الخصائص التي رافقت بلدانية ياقوت في مواضع كثيرة من معجمه استخدامه للشواهد الشعرية وتوظيفها خدمة لأغراضه البلدانية.

غير أنّ النسبة التي خص بها المغرب الإسلامي قدرت ب 2%، وهي نسبة لا تسدّ كلّ الثغرات الخاصة بالجانب الاقتصادي، لو قارنَّهَا بما قدَّمَهُ فيما يخص الأعلام، وأسماءهم، وتواريخ وفاتهم، ومؤلفاتهم...إلخ، بالرغم من اعتماده على مصادر جغرافية مهمة بالنسبة للمنطقة، وهذا ما يؤكد لنا عدم زيارة ياقوت الحموي لبلاد المغرب الإسلامي واكتفى بما هو مكتوب لتقديم بعض الأوصاف، كما لا نستبعد اعتماده على الرواية الشفوية للتعريف ببعض أعلام المنطقة.

واعتمادا على هذه المادة حاولنا رسم صورة ولو بسيطة عن المجال الاقتصادي بالمغرب الإسلامي، وقسمنها على النحو التالي:

أ- الزراعة:

اختلفت طريقة الوصف لدى الحموي عن غيره من الجغرافيين الذين اعتمدهم للتعريف بمناطق المغرب الإسلامي، ونخص بالذكر هنا ابن حوقل، والبكري؛ فصاحب كتاب معجم البلدان تطرّق إلى الحياة الزراعية وتنوع محاصيلها في بعض البلدان والمدن التي ترجم لها دون إسهاب ولا تفصيل، من ذلك حديثه

عن برقة ذات الفواكه الكثيرة والخيرات الواسعة من جوز ولوز وأترج وسفرجل، وموضع بُرقة الغضا الذي كان ينبت في رماله شجر الغضا الشبيه بالأثل، وحطبه من أجود الحطب، ويستعرض بلدة أوجلة جنوب برقة بأنها عامرة كثيرة النخل والفواكه والشجر، ويصف أيضا كثرة نخيل وتمور مدينة أجدابية [30]، وقال عن أهل مدينة سرت "لهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة"[31]، وعُرِفَت طرابلس بكثرة ثمارها وخيراتها، وبشرقها بساتين جليلة[32]، وفي جبال نفوسة نخل كثير وزيتون وفواكه، وفي جنوب الجبل مدينة مرمي بها آبار ونخيل كثيرة[33]، وأشار إلى زراعة النخيل في فزان وأكّد على أن كثرة تمرها ونخيلها[34].

كما يصف وفرة أشجار الزيتون في مدينة سفاقس (أسفاقس) قائلا: "والغالب على غلتها الزيتون"[35]، ويتحدث عن زراعة النخيل بقابس ونواحيها، وتمَيُّزِهَا عن كل بلدان إفريقية بزراعة شجر التوت وتربية دودة القز وصناعة الحرير، فيقول: "وفيها جميع الثمار، والموز فيها كثير، وفيها شجر التوت الكثير ويقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات غيرها، وحريرها أجود الحرير وأرقه، وليس في عمل إفريقية حرير إلا في قابس، واتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال، ... وبها قصب السكر كثير"[36].

أمّا مدينة نفزاوة فكانت "كثيرة النخيل والثمار وحواليها عيون كثيرة"[37]، ويصف بساتين مدينة قفصة مشيراً إلى نخيلها وزيتونها وتينها وعنبها وتفاحها، ويخبرنا بأنّها أكثر البلاد فستقا، ومنها يحمل إلى جميع إفريقية والأندلس وسجلماسة، وبها تمر مثل بيض الحمام، كما أنّها تُميرُ القيروان بأنواع الفواكه، أمّا قلعة حماد فتحف بها رساتيق ذات غلة وشجر مثمر كالتين والعنب[38]، وجنوب إفريقية مدينة أكسنتلا بظاهرها عمارة فيها جميع الفواكه والكروم وشجر التين والأغلب على ذلك النخيل، ويفيدنا بأنّ مدينة بونة كانت مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه والبساتين القريبة، وأكثر فاكهتها من باديتها[39]، وهو نفس ما ذكره ابن حوقل[40]، ويصف مدينة توزر قائلا: "كثيرة النخيل والبساتين ولها سواد عظيم، وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا، ويخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا"[41].

يسهب مؤلفنا في وصفه للثمار المنتشرة بمدينة تونس ونواحيها فيقول: "وتونس أشرف بلاد إفريقية، وأطيبها ثمرة، وأنفسها فاكهة، فمن ذلك اللوز الفريك، يفرك بعضه بعضا من رقة قشره ويحت باليد وأكثره حبتان في كل لوزة مع طيب المضغة وعظم الحبة، والرمان الضعيف الذي لا عجم له البتة مع صدق الحلاوة وكثرة المائية، والأترج الطيب الذكي الرائحة البديع المنظر، والتين الخارمي أسود كبير رقيق القشر كثير العسل لا يكاد يوجد له بزر، والسفرجل المتناهي كبرا وطيبا وعطرا، والعناب الرفيع في قدر الجوزة، والبصل القلوري في قدر الأترج مستطيل سابري القشر صادق الحلاوة كثير الماء"[42].

وبالقرب من القيروان مدينة جلولاء "كثيرة الأنهار والثمار وأكثر رياحينها الياسمين وبطيب عسلها، يضرب المثل لكثرة ياسمينها، وبها يربب أهل القيروان السمسم بالياسمين لدهن الزنبق، وكان يحمل من فواكهها إلى القيروان في كل وقت ما لا يحصى"[43]، ويتحدث من جهة أخرى عن شهرة مدينة أبة بإنبات الزعفران، وهو في ذات الوقت أكثر غلات كورة الأربس، ويؤكد الحموي على كثرة هذه المادة ببلدة مجانة[44].

كما ينوه ياقوت بخصوبة أرض كُدال فيقول: "زعم لي بعض أهل إفريقية أن الحنطة إذا زرعت فيها تريع ريعًا مفرطا، حتى أن الإنسان إذا زرع في بعض الأعوام مكوكا ربما جاء خمسمائة مكوك إلى ألف"[45]، ويخبرنا أنّ بلدة باجة عرفت بكثرة حنطتها لذا سميت بباجة القمح، ويضيف اعتمادا على رواية شفوية ممن يثق بهم أن الحنطة تباع فيها ككل أربعة رطل برطل بغداد، بدرهم واحد فضة، ومن حبوب البلدة أيضا الحمص والفول[46]، وكان زرع بلاد الزاب يحصد مرتين في السنة[47]، ولو عدنا لمصادر أخرى سيتضح لنا أن هذه المناطق توفرت على إمكانيات طبيعة وجغرافية ساعدتها على وفرة المحاصيل بأنواعها المختلفة، وأهم هذه العوامل الماء والتربة.

ويصل إلى مدينة بسكرة واصفا ما بها من نخل وشجر وقصْب جيد، مستندا في ذلك على أبيات شعرٍ لأحمد بن محمد المرُّوذي:

ثم أتى بِسكرَةَ النخيل**** قد اغتدى في زيّه الجميل[48]

ليعرّج على مدينة تاهرت مشيراً إلى وجود أنواعٍ مختلفةٍ من الثمار بها، ومؤكداً على أنّ سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعماً[49]، لكنّه لم يهتم بذكر تنوع ثرواتها الحيوانية على النحو الذي قدّمه كل من ابن حوقل في كتابه صورة الأرض، أو ما أفادنا به البكري من خلال مسالكه بالرغم من أنّه اقتبس منهما النص، كما يذكر كثرة زراعة الزيتون بمكناسة وضواحيها حتى أنها شهرت بمكناسة الزيتون[50]، ويصف بساتين النخيل بسجلماسة واتساع مساحتها، ويذكر أنّه على بُعدِ أربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجاري به أعناب شديدة الحلاوة، وفيه ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقل، وإلى الشمال من سجلماسة تقع مدينة أغمات ليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظا ولا خصبا منها تجمع بين فواكه الصرود والجروم، أما غرب سجلماسة وعلى مسافة أربعة فراسخ فتوجد مدينة درعة أكثر ثمرتها القصب اليابس جدّا[51]، ويضيف أن مدينة ورجلان "كثيرة النخل والخيرات"[52].

ب- طرق الري:

تعدّ عملية الريّ من بين العوامل الرئيسية المساعدة على رفع مستوى المنتوج الزراعي كماً ونوعًا، غير أنّ المصادر الجغرافية لم تهتم بهذه المسألة كثيرا ولا بالطرق المتبعة في ذلك، بالقدر الذي أولته لتنوع المحاصيل الزراعية وأنواع الثروات الحيوانية، لكن من خلال اطلاعنا على محتوى "معجم البلدان" وقفنا على بعض الإشارات المتواضعة تبين لنا أهم الطرق التي اعتمدها سكان المغرب الإسلامي لري محاصيلهم، والتي اختلفت في الواقع من منطقة إلى أخرى، منها ما كان بسيطا يعتمد على الرش (النضح)، كأهل مدينة ودان الذين كان "لهم زرع يسير يسقونه بالنضح"[53]، والطريقة نفسها ذكرها البكري[54]، أمّا أهل زويلة فاعتمدوا في عملية سقي نخلهم وزرعهم على الإبل[55]، وعن سقي المحاصيل بقابس يخبرنا المؤلف نفسه قائلا: "ومياهها سائحة مطّردة يسقى بها جميع أشجارها، وأصل هذا الماء من عين خرارة في جبل بين القبلة والغرب"[56]، وهو ما وصفه البكري قبله[57].

غير أنه قدَّم نصوصًا أخرى مع تفاصيل أهم مما سبق ذكره، بحيث يخبرنا عن إحدى الطرق التي كانت تستعمل لتوزيع المياه على كل قطعة أرض زراعية بقفصة،

فيقول: "وقد قسم ذلك الماء على البساتين بمكيال توزن به مقادير شربها معمولة بحكمة لا يدركها الناظر، لا يفضل الماء عنها، ولا يعوزها تشرب في كل خمسة عشر يوما شربا، وحولها أكثر من مائتي قصر عامرة آهلة تطّرد حواليها المياه تعرف بقصور قفصة"[58]، ومن الواضح أن النص الوارد لدى ياقوت الحموي كان إعتمادا على البكري الذي عدّدَ القصور العامرة والمحيطة بالمدينة[59]، أما كيفية توزيع المياه فقد نقلها صاحب كتاب البلدان اعتمادا على مصدر آخر لم يفصح عنه، ويفصّل أيضا في مسألة السقي بتوزر فيقول موضحا: "ينقسم كل نهر من هذه الأنهار على ستة جداول، وتتشعب من تلك الجداول سواق لا تحصى، تجري في قنوات مبنية بالصخر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا، كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر، يلزم كل من يسقى منها أربعة أقداس مثقال في العام، وبحساب ذلك في الأكثر والأقل وهو أن يَعْمَدَ الذي له دولة سقي إلى قدس في أسفله ثقبة مقدار ما يسعها وتر قوس النَّدَّافِ، فيملأه ماء ويعلقّه ويسقي الحائط أو البستان من تلك الجداول حتى يفنى ماء القدس ثم يملأ ثانيا هكذا، وقد علموا أن سقي اليوم الكامل مائة ألف دينار"[60]، وهو نفس ما ذكره البكري، لكن مع اختلاف في كمية سقي اليوم الواحد والتي ذكرها قائلا: "سقى اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدسا"[61].

وعليه يمكن القول انّ هذه المادية المصدرية مكملة لتلك النصوص الواردة ضمن المصنفات النوازلية التي عالجت مسائل جدّ هامّة حول قضايا الريّ وكيفية تقسيم المياه بين الأعالي والسافل.

كما ورد لدى ياقوت الحموي إشارة هامة لها علاقة بتنوع المحصول الزراعي، إنّها التربة، وهذا ما يفسر تنوع المحاصيل وكثرتها من منطقة إلى أخرى، إذ يخبرنا عن مدينة باجة قائلا: "... وبها يضرب المثل في كثرة المطر....حولها بساتين عظيمة تطّرد فيها المياه، وأرضها سوداء مشققة، تجود فيها جميع الزروع...." [62]، مع العلم أنّ هذا النوع من التربة يعد من أفضل الأنواع حسب إشارة الطغنري: "أطيب الأرض، الأرض السوداء اللطيفة الأجزاء السريعة التفتت"[63]، الأمر الذي ساعد على ربع زرع منطقة باجة وكثرة أنواعه، لهذا سميت "هُرْيَ إفريقية"[64]، كما يكشف لنا

ابن بصال من جهته عن أهم المحاصيل التي يمكن أن تجود في هذه التربة، إذ تجود فيها زراعة بعض أنواع الخضر بحلول فصل الشتاء، وكذا بعض الثمار مثل التوت، والزيتون، والرّمان، والتين، والأترج[65]، وعرفت مدينة البصرة بالحمراء لأنها حمراء التربة[66]، وهذا النوع من التربة يجود فيها زراعة البصل، والثوم، والبذنجان، واللفت، والفجل، والجزر، والكمثري، والزعرور، واللوز، والكروم، والتين، والفستق، والعنب، والسفرجل[67]، وعن مدينة رقادة يقول: "لم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما وأرق تربة"[68].

خلاصة القول، ورد لدى الحموي جملة من النصوص التي أكدت تنوع وجودة المحاصيل الزراعية وكذا كثرتها بالمغرب الإسلامي، وربط ذلك وبصورة غير مباشرة بجملة من العوامل الطبيعية التي نلخصها في وفرة المياه، جودة التربة، والمناخ الملائم.

ج- الثروة الحيوانية

من الواضح أن صاحب المعجم لم يعر الثروة الحيوانية اهتماماً كبيراً، والسبب عائد لاهتمامه بالأماكن وطبيعتها وكذا ضبط أسماءها وربما معانيها، وهذا هدفه من تأليف كتابه، وما قدّمه لنا من مادة من معلومات باهتة شمل بعض الأنواع فقط، ولم يتوسع فيها بالرغم من اعتماده على مصادر جغرافية هامة، من ذلك قوله حول مدينة البصرة: "مدينة كبيرة، وهي أوسع تلك البلاد مرعى وأكثرها ضرعا ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذِّبان"[69]، وذبائح مدينة سرت "المعز طيب اللحم"[70]، وذكر ابن حوقل أنّ لها سائمة من الإبل والغنم[71]، كما يعرّفنا بأنّ مدينة تلمسان تميزت بنوع من الخيل عرفت ب"الخيل الراشيدية، لها فضل على سائر الخيل"[72]، هذا إلى جانب إشارته المحتشمة لصيد حيوان بري بإفريقية وهو الفنك[73].

أمّا عن الحيوانات البحرية فيخبرنا بأنّ مدينة بنزرت الساحلية يشقها نهر كبير كثير الحوت، كما أنّها تنفرد ببحيرة تخرج من البحر الكبير ، يخرج منها في كل شهر صنف من السمك لا يشبه السمك الذي خرج في الشهر الذي قبله إلى انقضاء الشهر[74]، كما عرفت تونس بأجناس من السمك لا توجد في غيرها، "يرى في كل شهر

جنس من السمك لا يرى في الذي قبله، يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم، منه جنس يقال له النقوس..."[75].

د- المعادن

لم يتوسع ياقوت الحموي في ذكر المعادن التي احتوتها مناجم وطبيعة المغرب الإسلامي، واكتفى بذكر معدن الحديد بكورة الأربس، ومدينة بونة[76]، وسبقه صاحب "صورة الأرض" بالقول أنّ هذا المعدن بمدينة بونة خلال القرن 4هـ/10م كان كثيرا "ويحمل منه إلى الأقطار الغزير الكثير"[77]، وبتونس ملاحة كبيرة منها ملحهم وملح من جاورهم[78]، وبأوليل معدن الملح ومنها إلى بلدة لمطة خمسة وعشرون ميلا وبهذه الأخيرة معدن الدرق[79]، وبلدة مجانة جبال فيها "معادن حديد وفضة ومعدن المرتك والرصاص ومن إحدى الجبال تقلع حجارة للطواحين تحمل إلى القيروان وغيرها من مدن المغرب"[80].

هـ- الصناعة

- **النسيج:** تصنف صناعة النسيج والغزل في خانة الصناعات القومية المتكاملة في المغرب الإسلامي، مارسها النساء وحتى الرجال، فهي أحد الحرف التي ساعدت العديد من الأفراد في التغلب على الظروف الاجتماعية الصعبة التي واجهتهم، وليس أدل على أهمية هذه الصنعة، مما ذكره ابن خلدون من معلومات فيما يخص صناعة الحياكة والخياطة باعتبارهما جزءا هاما من الصناعة النسيجية، وخصهما بفصل ضمن مقدمته مشيرا من خلاله إلى أنهما "قديمتان في الخليقة لما أنّ الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل"[81]، كما تتعلق إحدى هذه الشهادات بإشارة ابن الأزرق إلى قلة الصنائع بالمغرب إلاّ ما كان من "صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزه ودبغه، فإنهم لما استحضروا، بالغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها، وكون هذين أغلب السلع في قطرهم"[82].

ومن جهته صاحب كتاب "معجم البلدان" يكشف لنا عن أهمية هذه الصناعة في بلاد المغرب الإسلامي؛ فيخبرنا عن مدينة المهدية قائلا: "وتنسب إليها الثياب السوسية المهدية"[83]، وعن غرس أشجار التوت في قابس لصناعة الحرير يقول: "وفيها شجر التوت الكثير، ويقوم من الشجر الواحد منها من الحرير مالا

يقوم من خمس شجرات غيرها، وحريرها أجود الحرير وأدّقه، وليس في عمل إفريقيا حرير إلا في قابس"[84]، أمّا عن مدينة سوسة فيخبرنا بأنّ أكثر أهلها حاكة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة، وما صنع في غيرها فمشبه بها، يكون ثمن الثوب منها في بلدها عشرة دنانير، ويغزل بها غزل تباع زنة مثقال منه بمثقالين من ذهب[85]، ويصنع بمدينة تونس للماء من "الخزف كيزان تعرف بالريحيّة، شديدة البياض وفي نهاية الرقّة تكاد تشفّ، ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار"[86].

وينوه بأن بلد تبسة كان يعمل فيها بسط جليلة محكمة النسج، يقيم البساط منها مدة طويلة، وغير بعيدٍ منها قلعة بني حماد كان يعمل بها الأكسية القلعية الصفيقة النسج الحسنة المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبريسم[87]، أمّا نساء تلمسان فاتخذن "من الصوف أنواعا من الكنابيش لا توجد في غيرها"[88]، ويذكر عن صناعة الأزر بسجلماسة ما مفاده: "ولنسائهم يدُ صانع في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ"[89].

- **الدباغة:** ترتبط هذه الصناعة بالقطاع الرعوي الذي اتسع نطاقه في المجتمع الريفي والبدوي، وتقوم على تنظيف الجلود وتليينها قبل استغلالها، وهي أولى الخطوات بعد استلامه حتى لا يفسد أو يتعفن، باستخدام مواد تعينه على إزالة الصوف والشعر من الجلد بسهولة، وبدون أذى له مثل زبل الحمام إلى جانب نبات شجر التاكوت المستخدم في الدبغ، كما استخدمت بعض الأصناف مثل الملح والرمان للمحافظة على طراوة الجلد[90].

وبالرغم من تجاهل مؤلفنا لتنوع الثروة الحيوانية ومناطق تربيتها إلاّ أنّ ما ذكره فيما يخص دباغة الجلود يوحي بتنوعها، إذ يتحدث عن جودة الجلود التي كانت تدبغ بأغمات جنوب مراكش مؤكداً على أنّها تفوق جودةً على جميع جلود الدنيا، ونفس الميزة عرفتها دباغة الجلود الغدامسية، و لا شيء فوقها في الجودة كأنها ثياب الخز في النعومة والإشراق[91]، و أفادنا صاحب كتاب البلدان بمعلومات

عن وجود تجار وصناع أسلحة بأرض كاكدم (أقصى المغرب)، وتمثلت هذه الأسلحة في الرماح والدرق اللمطية، وتعود صناعة الدرق إلى وجود حيوان بأرضهم يقال له اللمط من جنس الظباء، إلا أنه أعظم خلقا، ويتخذ من جلده الدرق اللمطية، قطر الدرقة منها عشرة أشبار، فالمحاربون لم يتحصنوا قط بأوقى منها، يكون ثمن الجيد منها بالمغرب ثلاثين دينارا مومنية، تدبغ في بلادهم باللبن وقشر بيض النعام، ويخبرنا عن أهل لمطة أنّهم كانوا ينقعون جلود اللمط في اللبن سنة كاملة ثم يتخذون منها الدرق فإذا ضربت بالسيف القاطع لم يخترقها[92].

و- التجارة

تميز المغرب الإسلامي جغرافياً بموقع ممتاز، جعل منه ممراً حيوياً بالنسبة للمبادلات التجارية مع العالم الإسلامي، وأهَلَه إلى أن يقوم بدور الوساطة التجارية من حيث الإنتاج والحاجيات، وقد وردت ضمن المعجم الجغرافي محل الدراسة مجموعة من المعطيات التاريخية الهامة والخصائص الجغرافية التي ميزة هذا المجال، الأمر الذي ساهم في ظهور تبادل تجاري على المستوى الداخلي والخارجي، مع ظهور أسواق متنوعة منها اليومي ومنها الأسبوعي، هذا بالإضافة إلى تنوع العناصر التي قامت بتحريك عجالة الاقتصاد بالمنطقة.

- **التجارة البحرية:** تعد الموانئ إحدى المقومات الأساسية لقيام تجارة خارجية، وهذا ما يمكن أن نستخلصه من إشارة ياقوت الحموي إلى ميناء مدينة تونس قائلا: "يقال لبحر تونس رادس وكذلك يقال لمرساها مرسى رادس"[93]، وعلى ميناء بحيرة أرغ كانت ترسوا المراكب الواردة من الأندلس وغيرها[94]، وعن تجارة الزيت بسفاقس ومجيء التجار إليها فيقول: "سفاقس في وسط غابة الزيتون، ومن زيتها يمتار أكثر أهل المغرب، وكان يحمل إلى مصر وصقلية والروم... "[95]، وكان التجار ينقلون الملح من ميناء منستير، الذي يستخرج من نواحيها إلى البلدان الأخرى[96].

- **التجارة البرية:** كانت التجارة البرية أحد أهم الطرق المساهمة في توزيع المنتجات المحلية لكل منطقة بالمغرب الإسلامي على المستويين الداخلي والخارجي؛ إذ يخبرنا ياقوت الحموي أنّ بلدة غزة آخر إفريقية شرق القيروان "تنزلها القوافل القاصدة إلى الجزائر"[97]، ويقول أن التجار في زويلة جنوب أجدابية يجتمعون بها

ويتفرقون منها إلى مناطق عديدة، ومنها يجلب الرقيق إلى ناحية إفريقية، أمّا أهل سجلماسة فكانوا من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب[98].

- **الصادرات والواردات:** إنّ الإشارة إلى التجارة البحرية والبرية يدفعنا إلى الحديث عن صادرات المغرب الإسلامي وارداته، فعن صادرته يخبرنا ياقوت أنّ مدينة أجدابية كانت تصدر التمور[99]، أمّا صادرات بلدة مجانة فكانت "معدن المرتك والحديد والرصاص في جبل من جنوبها، وتقلع منه حجارة للطواحين تحمل إلى القيروان وغيرها من مدن المغرب"[100]، ومن سفاقس كانت تحمل زيت الزيتون إلى المغرب ومصر وصقلية والروم "ويكون فيها رخيصا جدا يقصدها التجار من الآفاق بالأموال لابتياع الزيت"[101]، وعن ثمن هذا الزيت يخبرنا ابن حوقل قائلا: "وكان سعره فيما سلف من الزمان بحال غيّرته الفتن في وقتنا هذا ربما بلغ من ستين قفيزا بدينار إلى مائة قفيز بدينار، على حسب السنة وريعها"[102].

كما يصف الحموي تصدير قفصة لمادة الفستق قائلا: "وهي أكثر بلاد إفريقيا فستقا، ومنها يحمل إلى جميع نواحي إفريقية والأندلس وسجلماسة"[103]، ويذكر أن فواكه بلدة جلولاء لا تحصى وتحمل إلى القيروان في كل وقت، ومن مكناسة كانت تحمل الحنطة إلى الأندلس[104]، أمّا مدينة أغمات فكانت تحمل منها الجلود المدبوغة إلى سائر بلاد المغرب، وكانوا يتنافسون عليها[105].

ويكشف المؤلف عن بعض الأساليب الخسيسة من قبل تجار سرت فيقول: "وأهل سرت من أخس خلق الله خلقا وأسوأهم معاملة، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد أتفق جميعهم عليه، وربما نزل المركب بساحلهم بالزيت وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفوخونها ويوكونها ثم يصفونها في حوانيتهم وأفنيتهم ليروا أهل المراكب أن الزيت عندهم كثير، فلو أقام أهل المراكب ما شاء الله أن يقيموا ما ابتاعوا منهم إلا على حكمهم"[106]، كما يشير إلى أنّ أكثر تجار مدينة درعة من اليهود[107].

هذا بالإضافة إلى إشارته الهامة فيما يخص صيد المرجان من سواحل مدينة خزر وجاء فيها: "يجتمع التجار فيستأجرون أهل تلك المواضع على استخراجه من قعر البحر"[108]، وسبقه كل من ابن حوقل والبكري في ذكر المعلومة.

- **الأسواق:** الأسواق هي مواضع تشتمل على ما يحتاجه الناس من سلع وبضائع، وتعتبر المجال الذي تتم فيه العملية التجارية، ذكر ياقوت الحموي كثرتها بمدن المغرب الإسلامي وكذا تنوعها، من ذلك وصفه لكثرة أسواق مدينة أكسنتلا، وأوجلة، وكذا أسواق مدينة بسكرة، وبنزرت، ومرسى الدجاج[109]، وبمدينتي نفزاوة وأجدابية أسواق حافلة مقصودة[110]، وفي زويلة "أسواق تجتمع فيها الرفاق من كل جهة ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم"[111]، وبتونس "أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة"[112]، في حين يذكر أنّ أكرسيف كان "لها سوق في كل يوم خميس يجتمع له من حولها من القرى"[113]، وهو النص الوحيد الذي ذُكر حول وجود السوق الأسبوعي.

- **المكاييل والأوزان:** من خلال اطلاعنا على محتوى المعجم وجدنا نصاً وحيداً فيما يخص المكاييل والأوزان بالنسبة للمغرب الإسلامي، خص مدينة تنس حيث جاء قوله: "كيل يسمونه الصحفة، وهي ثمانية وأربعون قادوسا، والقادوس: ثلاثة أمداد بمد النبي، صلى الله عليه وسلم، ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة"[114]، والنص نقله ياقوت من كتاب "المسالك والممالك" للبكري، لكنه أهمل بعض المعلومات من النص الأصلي، والذي جاء فيها إضافة لما سبق "والجاري عندهم قيراط وربع درهم وصقل وحبتّان مضروبة كلها. ودرهم: اثنتا عشرة صقلية عددا"[115].

الخاتمة:

يبرز من خلال المؤلَّف أنّ ياقوت الحموي بدل جهداً كبيرا للتعريف بمختلف البلدان، ورتَّب أسماءها على حروف الهجاء، كما لا يفوتنا أن ننوه إلى خاصية جمعه في غالب الأحيان بين حداثة وحيوية المعلومات وبين نصوص تاريخية وأدبية وجغرافية سابقة، ومن الخصائص التي رافقت بلدانية ياقوت في مواضع كثيرة من معجمه استخدامه للشواهد الشعرية وتوظيفها خدمة لأغراضه البلدانية، لكن

هذا الجهد الكبير قد اتسم في بعض المواطن بالاقتضاب وكان ينقصه الوضوح، خاصة عندما يتعلق الأمر بالجوانب الاقتصادية.

وما نلمسه من خلال المصنف أنّ المادة التي قدمها المؤلف فيما يخص اقتصاديات المغرب الإسلامي هامة، على سبيل المثال لا الحصر نوع التربة، وكيفية السقي، وبعض المحاصيل، لكنّها لا تسد كلّ الثغرات المتعلقة بهذا الجانب، لأنّ ياقوت كان حريصا على التعريف بالمنطقة أو المدينة أو البقعة... وضبط اسمها ومعناها أكثر من اهتمامه بوصف خصائصها ومميزاتها، من ذلك عدم وصفه لأهم الثروات الحيوانية أو الصنائع التي عرفت انتشارا بالمنطقة.

خلاصة القول، إنّ معجم البلدان بالنسبة للمغرب الإسلامي يخدم صاحبه في التعرّف على أعلام المنطقة أكثر من مجال آخر، كذكر صاحبه لخمسة (5) علماء عند وصفه لتاهرت، وسبعة (7)علماء إطرابلس، وغيرهم من الشخصيات التي زارت المنطقة أو داع صيتها بالمنطقة لعلمها وتفقه أفرادها.

الهوامش:

1- ابن خلكان، أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د/ط، د/ت، م6، ص127/ الحنبلي، شهاب الدين، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، م5، ص.221

2- الحنبلي، المرجع السابق، ص222. 3-

ابن خلكان، المصدر السابق، ص139/ الحنبلي، المرجع السابق، ص222/ كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، دار الكتب العلمية، م7، ط1، 2003م، ص.7

4- ابن خلكان، المصدر السابق، ص127/ الحنبلي، المرجع السابق، ص221

5- ابن خلكان، المصدر نفسه، ص127/ الحنبلي، نفسه، ص.221

6- ابن خلكان، نفسه، صص127-128-

7- نفسه، صص127-128/ الحنبلي، المرجع السابق، ص221.

8- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2011م، م5، ص.133

9- المصدر نفسه، م5، ص134

10- نفسه، م2، ص.453

11- ابن خلكان، ص129- 139/ الحنبلي، المرجع السابق، ص.222

12- المصدر نفسه، صص128-129/ الحنبلي، المرجع نفسه، ص222/ كامل سلمان الجبوري، المرجع السابق، ص.7

13- كامل سلمان الجبوري، المرجع السابق، ص.7

14- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان، ص.139

15- كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية، 1957م، ج1، ص.335

16- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص.25

17- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، دمشق، ط(1995م)، ص451

18- 18- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص.125

19- نفسه، م1، ص462.

20- نفسه، م2، ص.56

21- نفسه، م1، ص240، ص270-274

22- نفسه، م1، ص.257

23- نفسه، م3، ص 355، ص.369

24- نفسه، م2، ص.72

25- نفسه، م3، ص.164

26- نفسه، م3، ، ص39، ص50، ص122، ص.134

27- نفسه، م 3، ص.132

28- نفسه، م 1، ص26.

29- لقد ذكر الحموي مجموعة من المصادر التي اعتمد عليها في وضع هذا المصنف ضمن مقدمة مؤلَّفه هذا بالإضافة إلى القائمة التي ذكرها في المتن. ياقوت الحموي،نفسه، ج1، صص21-30.

30- نفسه، م 1، ص462، ص472، ص328، ص.126

31- نفسه، م 3، ص.232

32- نفسه، م 4، ص.25

33- نفسه، م 5، ص296، ص.110

34- نفسه، م 4، ص295، ص.491

35- نفسه، م 1، ص.210

36- نفسه، م 4، ص.328

37- نفسه، م 5، ص.341

38- نفسه، م 4، ص434، ص.443

39- نفسه، م 1، ص285، ص607.

40- ابن حوقل، النصيبي، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د/ط، د/ت، ص.77

41- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م2، ص.67

42- نفسه، م 2، ص.71

43- نفسه، م 2، ص.181

44- نفسه، م 5، ص56، م 1، ص165، ص.108

45- نفسه، م 4، ص.500

46- نفسه، م 1، ص373، ص.374

47- نفسه، م 3، ص.139

48- نفسه، م 1، ص501، ص.502

49- نفسه، م 2، ص.9

50- نفسه، م 5، ص.210

51- نفسه، م 3، ص217، ص225، ص.513

52- نفسه، م 5، ص.371

53- نفسه، م 5، ص.366

54- البكري، أبو عبيد الله بن العزيز، المسالك والممالك، تحقيق د.جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج2، ص.183

55- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م 3، ص.180

56- نفسه، م 4، ص.328

57- البكري، المصدر السابق، ج2، ص189

58- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م 4، ص434

59- البكري، المصدر السابق، ص.224

60- نفسه، م2، ص.68

61- البكري، المصدر السابق، ج2، ص.226

62- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م 1، ص.374

63- الطغنري، المصدر السابق، ص.82

64- نفسه، م 1، ص.374

65- ابن بصال، عبد الله محمد بن إبراهيم الطليطلي، كتاب الفلاحة، نشر وترجمة، خوسي ماريه مياس بييكروسا، ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955م، ص45/ ابن العوام، أبو زكريا يحي بن محمد بن أحمد (ت6هـ/12م)، كتاب الفلاحة، **Madrid En La Imprenta, Ano,1802.** ج1، ص 91.

66- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م1، ص521.

67- ابن حجاج، أحمد بن محمد الإشبلي، المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار، جاسر أبو صفية، منشورات اللغة العربية الأردني، الأردن، 1986م ص86، 174/ ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص91، 99، 135، الطغنري، أبو عبد الله محمد بن مالك الغرناطي، زهرة البستان ونزهة الأذهان، تحقيق محمد مولود خلف المشهداني، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، 2005م ، ص.382

68- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م 3، ص.63

69- نفسه، م 1، ص.521

70- نفسه، م 3، ص.232

71- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.70

72- الحموي، المصدر السابق، م 2، ص.52

73- نفسه، م 1، ص.271

74- نفسه، م 1، ص592، ص.593

75- نفسه، م 2، ص.71

76- نفسه، م 1، ص165، ص.607

77- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.77

78- الحموي، المصدر السابق، م 2، ص.71

79- نفسه، م 1، ص.336

80- نفسه، م 4، ص390، م5، ص.56

81- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار الجيل، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص456.

82- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2008م ص738.-

83- ياقوت الحموي، المصدر السابق، م 5، ص.230

84- نفسه، م 4، ص289.

85- نفسه، م 3، ص320، .321

86- نفسه، م 2، ص.71

87- نفسه، م 2، ص16، م 3، ص.390

88- نفسه، م 2، ص.52

89- نفسه، م 3، ص.217

90- أبو ريه عطا، اليهود في ليبيا وتونس والجزائر، تقديم سنوسى يوسف إبراهيم، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005م، ص.124

91- نفسه، م 1، ص225، م 4، ص.212

92- نفسه، م 4، ص489، 490، م 5، ص.27

93- نفسه، م 2، ص.72
94- نفسه، م 1، ص.351
95- نفسه، م 3، ص.223
96- نفسه، م 5، ص.210
97- نفسه، م 4، ص.203
98- نفسه، م 3، ص180، ص.217
99- نفسه، م 1، ص.101
100- نفسه، م 5، ص.56
101- نفسه، م 3، ص.252
102- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.73
103- نفسه، م 4، ص.382
104- نفسه، م 2، ص.181
105- نفسه، م 1، ص.225
106- نفسه، م 3، ص206- .207
107- نفسه، م2، ص.513
108- نفسه، م5، ص.125
109- نفسه، م 1، ص24، ص328، ص502، ص593، م 5، ص125
110- نفسه، م 5، ص296، ص341، م1، ص125،
111- نفسه، م 3، ص.159
112- نفسه، م 2، ص.71
113- نفسه، م 1، ص.284
114- نفسه، م 2، ص.57
115- البكري، المصدر السابق، ص243.